من المسلم به ان الادب (نصوص تنتج وتستهلك كنصوص « أدبية ») لا يظهر الى الحياة بشكل مطلق ، اي بشكل ميكانيكي ، مع هذا التاريخ او ذاك من السيطرة الاقتصادية والسياسية لنمط الانتاج الرأسمالي · فكما وجد في قلب التشكيلات الاجتماعية الماقبل ـ رأسمالية سيرورة طويلة ، لتكون لا متكافىء ومتعدد الاشكال لنمط الانتاج الرأسمالي، فقد وجد بالمثل وبالضرورة سيرورة طويلة لتكون « الادب » كتشكيلة ايديولوجية جديدة ، سيرورة قلقة لـ « اشكال بدائية مختلفة · ان هاتين السيرورتين مترابطتان : لكنه ينبغي دراستهما بشكل مشخص ، فنحن لا نستطيع ان نقول شيئا ذا بال بشكل مسبق وبطريقة محض استنباطية · نطرح الان السؤال التالي : هل تسمح لنا معرفتنا للشكل الادبي في مجتمعات نمط الانتاج الرأسمالي ، ان نطرح مسألة تكون الادب واشكاله البدائية ؟ نعم ، بلا شك ، وباتجاهين :

في المقام الاول ، ان اكتشاف كون الاساس المادي للاشكال الادبية في الادب الفرنسي في القرن التاسع عشر والعشرين ، يقوم على العلاقة المتبادلة والمتعارضة التي تحكم الممارسات المدرسية واللغوية (القومية) ، يسمح لنا بتحليل الحقب المتعاقبة في تاريخ الاشكال الادبية : من هنا تأتي اهمية دراسة « حالات » نمطية : نصوص فلوبير التي ظهرت في زمن تشكل الجهاز المدرسي الفرنسي ، نصوص بيجيه المواكبة للفترة الاولى لتعميم التعليم المدرسي ، ونصوص كامو والسرياليين الموافقة للازمات الاولى للجهاز المدرسي الفرنسي واليته المرتبطة بتحولات ذات اساس اقتصادي واجتماعي · وهذا يسمح لنا ايضا بطرح مسألة اشكال تكون الادب في تشكيلات اجتماعية رأسمالية اخرى حيث تترابط اللغة القومية مع عملية التدريس بشكل مختلف (٣) ·

في المقام الثاني ، ان معرفة هذا الاساس المادي يستطيع ان يرشدنا في بحث مواضيع تستعيد الماضي : القرن الرابع عشر ، والثامن عشر ، وتسمح لنا أن نتساءل : تحت اي شرط تشكل « الادب » كتشكيلة ايديولوجية مستقلة ؟ وما هي الممارسات اللغوية المتناقضة التي شكلت اساسا له ؟ وضمن أي حدود مر تحققها باشكال مدرسية بدائية و « قديمة » اخذت في التكوين في اجهزة ايديولوجية مغايرة ؟ · لا نستطيع هنا الا طرح هذه الاسئلة الباحثة عن اجابة ·

انطلاقا من هذا التحليل ، نستطيع الان فهم نقطة جوهرية : موضوعية الادب ، وعلاقته بالواقع الموضوعي الذي يحدده تاريخيا ، وهذه العلاقة ليست علاقة بـ « موضوع» تمثله ، اذ انها **ليست علاقة تمثيل** · كما انها ليست ببساطة مجرد علاقة استعمالية ،

---

(٣) ينبغي التذكير هنا بحدس غرامشي الفني بدلالاته الوارد في جزئين من « دفاتر السجن » : « المثقفون وتنظيم الثقافة » ، و « الادب والحياة القومية » · حيث يقارن غرامشي بشكل منهجي بين الصفة « القومية » و « الشعبية » للادب الفرنسي في القرن التاسع عشر ، والصفة « الكوزموبوليتية » و « النخبوية » للادب الايطالي في نفس الفترة · ويربط هذا بتباين التاريخ السياسي ، المدرسي واللغوي لكل من البلدين · ويقترح تحليل روابط التوافق والاختلاف بين الادب الفرنسي والادب الايطالي ، والاوبرا القومية الايطالية · الا يدعو للدهشة ان اعمال غرامشي التي تنم عن معرفة واسعة لتاريخنا وثقافتنا ، والتي يمكن ان تعلمنا الكثير ، ما زالت غير مترجمة في فرنسا ؟ وان بعض « شذراته المختارة » المتماسكة نسبيا والتي طبعتها « دار المنشورات الاجتماعية » لم تعد طباعتها منذ زمن طويل ؟